(٩٨)

على أبواب الطائف

النبى : (يأمر من ينادى) كفوا عن الأعناب والنخيل..

الثقفيون : إما أن تأخذها إن ظهرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم.

النبى : بل أدعها لله والرحم.

* * *

النبى : (مناديًا فى أهل الحصن) من خرج إلينا فهو حر.

البعض : فيهم عبيد.. (مستذكرين) أتعتقهم يا رسول الله؟!

النبى : أولئك عتقاء الله، لا سبيل عليهم.

البعض : يا رسول الله، ادع الله على ثقيف.

النبى : اللهم اهد ثقيفًا واكفنا مؤنتهم وأنت بهم.

(للمسلمين) قولوا لا إله إلاّ الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده!

* * *

«حنين فى شوال سنة ٨ هـ، وقد أجمع الرسول - عليه السلام - أمره بالاتجاه إلى الطائف التى طارت إليها فلول هوازن للتحصن مع ثقيف بحصونهم المنيعة.. النبى - عليه السلام - يأمر بإرسال الغنائم من «حنين» إلى «الجعرانة» بين مكة والطائف، ويأمر خالد بن الوليد أن يسبقهم على رأس قوة إلى الطائف يعسكر هناك حتى يوافيه..».

* * *

«بظاهر الطائف وقد عسكر خالد بن الوليد بناحية من حصنها الذى تمنعت فيه ثقيف والهاربون إليها بينما يدور خالد حول الحصن يتلمس نواحيه.. يقف خالد فينادى على أهل الحصن..».

خالد بن الوليد : (مناديًا) فلينزل إلىّ بعضكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع!

«لا أحد بالحصن يجيب!».

(يستأنف) أو اجعلوا لى مثل ما جعلت لكم وأدخل عليكم حصنكم أكلمكم!

الثقفيون : لا ينزل إليك رجل منا ولا تصل إلينا.. يا خالد إن صاحبكم لم يلق قومًا يحسنون قتاله غيرنا..

خالد : اسمعوا منى!.. لقد نزل رسول الله بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر، وبعث رجلاً واحدًا إلى فدك فنزلوا على حكمه، وأنا أحذركم مثل يوم بنى قريظة.. حصرهم رسول الله أيامًا ثم نزلوا على حكمه، ثم دخل مكة وأوطأ هوازن فى جمعها..

بعضهم : ما قابل قومًا مثلنا..

خالد : أنتم فى حصن فى ناحية من الأرض، لو تركككم لقتلكم مَنْ حولكم ممن أسلم!

الثقفيون : لا نفارق ديننا، ولا يقدر علينا فى حصننا أحد!

* * *

«الطريق من «حنين» إلى الطائف.. النبى يسلك بالمسلمين على «نخلة اليمانية»: وادٍ على بعد ليلة من مكة.. ثم على «قرن»: قرية على بعد خمسين ميلا من مكة.. ثم على «المليح»: وادٍ بقرب الطائف، ثم على «بُحْرة الرُّغاء» من «لِيَّة»: موضع فى لِيَّة من ديار نصر.. يحط فيها المسلمون رحالهم طلبًا للراحة قبل أن يستأنفوا إلى الطائف وحصونها..».

«مضارب المسلمين فى «لِيَّة».. وقد هاجت هذيل لرجل لها قتله رجل من بنى ليث.. يتوافد المختصمون إلى النبى - عليه السلام - يطلبون حكمه حقنًا للدماء وقد اقتادوا القاتل الذى لم يدفع التهمة أو ينكرها.. النبى - عليه السلام - يأمر بالقود وبتسليم القاتل لهذيل لتقتص أو تعفو فتؤثر القصاص..».

* * *

«بالطريق بعد أن غادر المسلمون «لِيَّة» وهدموا حصنًا فى الطريق لمالك بن عوف.. المسلمون

يسلكون طريقاً يقال له «الضيقة» فيقول لهم النبى - عليه السلام - مستبشرًا: «بل هى اليسرى».. المسلمون يخرجون من هذا الطريق فيشرفون على «نخب»: وادٍ بظاهر الطائف، وينزلون تحت سدرة يقال لها: «الصادرة»، ويمرون بقبرٍ قديم فيقف البعض متسائلاً..».

بعض المسلمين : لمن هذا القبر يا رسول الله؟!

النبى : هذا قبر أبى رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه..

* * *

«على حصن الطائف.. الحصن ضخم بالغ المناعة، ملأته ثقيف بالسلاح والسهام والنبال والعتاد، ويشرف الثقفيون منه على السفوح والوديان المحيطة.. ما يكاد المسلمون يظهرون حتى يبادرهم رماة الثقفيين بالسهام والمقاليع من الحصن.. لا يدعون لأحد أى فرصة للاقتراب من أبواب أو أسوار الحصن..».

«بالسفوح حول الحصن وقد قتل من المسلمين اثنا عشر رجلا، أصابتهم النبال التى أخذت تتساقط كالجراد - النبى - عليه السلام - يأمر المسلمين بالابتعاد عن مرمى النبال، ويختار

موضعًا ليعسكروا فيه.. المسلمون يقيمون قبتين للرسول: إحداهما لزوجه أم سلمة والثانية لزوجه زينب، ويمضي كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار فينظمون مضارب الناس تأهبًا لحصار طويل!»

«خالد بن الوليد من بين الصفوف.. يقترب من الحصن ينادى..».

خالد بن الوليد : (مناديًا) من يبارز؟

«لا يرد أحد..»

خالد : (معاودًا) من يبارز؟!.. (مستحثًا) ألا من مبارز؟!!

«عَبْدْ ياليل يطل من أعلى الحصن..»

عبد ياليل : لا ينزل إليك أحد، ولكننا نقيم في حصننا.. خبأنا فيه ما يصلحنا سنين، فإذا أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا حتى نموت عن آخرنا..

* * *

«على أسوار حصن الطائف وقد طال الحصار حتى بلغ بضع عشرة ليلة.. قد طال بالمسلمين الإجهاد، فيشير سلمان الفارسى بنصب المنجنيق لكسر الحصار، يسارع بمشورته إلى النبى - عليه السلام..».

سلمان الفارسى : يا رسول الله أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون، وتُنصب علينا.. فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق..

«ينبرى البعض فيؤيد مشورة سلمان، ويقبل الطفيل بن عمرو الأوسى فيضع ما أتى به من منجنيق ودبابات حشدها له قومه تحت أمر المسلمين، بينما يعكف سلمان ونفر تطوعوا معه لعمل المزيد من المنجنيق لعله يفت فى المتنعين بالحصن..».

* * *

«بعد يوم، عدد من المسلمين ينتهزون فرصة التقاذف بالمنجنيق، فيزحفون إلى الحصن من تحت دبابتين تقيانهما النبل والسهام.. يقتربون من حائط للحصن يأملون حفر ثغرة فيه،.. ما تحس بهم ثقيف حتى ترسل عليهم من أعلى الحصن كتلا من الحديد المحماة بالنار، فَحَرقت الدبابتين.. المسلمون لا يملكون إلاّ الخروج من تحت الدبابتين فرارًا من النيران المشتعلة، فتتلقفهم نبال الثقفيين، تعمل فيهم القتل والجراح..».

بعض المسلمين : (متصايحين) نقطع أعنابهم ونحرق نخيلهم..

«يندفع المسلمون إلى الأعناب والنخيل بسفوح الحصن..».

الثقفيون : (منادين من أعلى الحصن) لا تفسدوا الأموال، فإنها لنا ولكم.. (ينادون على النبى) لماذا تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم..

النبى : بل أدعها لله وللرحم.

«النبى – عليه السلام – ينادى فى المسلمين أن يكفوا عن الأعناب والنخيل.. يصدعون..».

* * *

«النبى – عليه السلام – يستدعى إليه بعضًا من جهيرى الصوت فيأمرهم بأن ينادوا على الثقفيين من أسفل الحصن أن من يخرج من الحصن فلن يمس بسوء وأنه حر..».

المنادون : (ينادون من أسفل الحصن) يقول لكم رسول الله: أيما شخص نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر.. أيما شخص نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر..

«يخيم صمت طويل، يعقبه خروج بضعة عشر رجلا من الحصن.. يتقدمهم أبو بكرة وفيهم عبد لعثمان بن عامر بن معتب يقال له «المضطجع».. وعبد لكلدة يقال له الأزرق ابن الأزرق، ووردان بن عبيد بن ربيعة الثقفى وآخرون.. النبى عليه السلام يستقبلهم حفيًّا، وينفذ لهم وعده، ويعطيهم الحرية دون أن يمسهم أحد أو يعرض لهم أحد بسوء..».

البعض : (متسائلين) فيهم عبيد.. أتعتقهم يا رسول الله؟

النبى : من خرج إلينا من العبيد فهو حر..

البعض : سوف تنشدهم ثقيف!

النبى : أولئك عتقاء الله، لا سبيل عليهم..

* * *

«قبة النبى – عليه السلام – على أسوار الطائف، عيينة بن حصن يتقدم إلى النبى – عليه السلام – يستأذنه فى أن يأتى أهل الطائف فيكلمهم لعل الله تعالى أن يهديهم.. النبى – عليه السلام – يأذن له..».

* * *

«بحصن الطائف، عيينة بن حصن جالس إلى زعماء ثقيف.. عيينة يتودد ويتقرب إلى الثقفيين حتى أنسوا إليه وجعلوا يسألونه بماذا يشير عليهم..».

عيينة بن حصن : (ناصحًا) تمسكوا بمكانكم..

الثقفيون : أأنت تقول ذلك؟!

عيينة : أجل.. فداؤكم أبى وأمى! والله لقد سرنى ما رأيت منكم، والله لو أن فى العرب أحدًا غيركم! والله ما لاقى محمد مثلكم قط.

ثقفيون : (متعجبين) ترى ذلك؟!

عيينة : لقد ملوا المقام. فاثبتوا فى حصنكم، فإن حصنكم حصين، وسلاحكم كثير، وماءكم واتن لا تخافون قطعه!.. لا يتكاثر عليكم قطع ما قطع من أشجار.. فاثبتوا فى حصنكم..

«ينصرف عيينة مودعًا بخليط من الرضا والتوجس!!».

الثقفيون : (لكبيرهم أبى محجن متعجبين) كنا قد كرهنا دخوله، وخشينا أن يخبر محمدًا بخلل إن رآه فينا أو فى حصننا!

أبو محجن الثقفى : أنا كنت أعرف به منكم.. ليس منا أحد أشد على محمد منه!

بعضهم : (فى عجب) وهو معه؟!

أبو محجن : (مؤكدًا) وإن كان معه.

* * *

«مضارب المسلمين بالسفوح حول الحصن، المسلمون يستقبلون عيينة بن حصن بمزيج من الشوق والترقب.. يطلع عليهم صاحب العزم الأكبر - عليه السلام - فيسأله مستطلعًا..».

النبى : (لعيينة) ما قلت لهم ؟

عيينة بن حصن : دعوتهم إلى الإسلام، وقلت لهم ادخلوا فى الإسلام وحذرتهم من النار، ودللتهم على الجنة.. وقلت لهم والله لا يبرح محمد عقر داركم حتى تنزلوا، فخذوا لأنفسكم أمانًا، قد نزل بساحة أهل الحصون قبلكم: قينقاع، والنضير، وقريظة، وخيبر أهل الحلقة والعدة والآطام.. (يستأنف) قد خذلتهم ما استطعت..

النبى : كذبت!

عيينة : (يردد واجفًا) كذبت؟

النبى : لقد قلت لهم..

«النبى - عليه السلام - يطفق يعيد على مسامع عيينة ما قاله لثقيف، وعيينة مبهوت قد جف حلقه وتقطعت أنفاسه وكاد قلبه يتوقف عن الخفقان..».

عيينة : (فى تسليم) صدقت يا رسول الله.. أستغفر الله وأتوب إليه وإليك من ذلك..

«عمر بن الخطاب ينبرى وقد استشاط غضبًا..».

عمر بن الخطاب : (ثائرًا) يا رسول الله، دعنى أقدمه فأضرب عنقه.

النبى : (حزينًا) لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى!

أبوبكر الصديق : (منبريًا) ويحك يا عيينة! إنما أنت أبدًا توضع فى الباطل، كم لنا منك من يوم بنى النضير، وقريظة، وخيبر.. تُجلب علينا وتقاتلنا بسيفك، ثم أسلمت كما زعمت فتحرض علينا عدونا!

عيينة : أستغفر الله وأتوب إليه، لا أعود أبدًا!

* * *

«بأسفل خارج الحصن، أبوسفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يشيران إلى أهل الحصن طلبًا للأمان..»

أبوسفيان والمغيرة : (مناديين) أمِّنوا حتى نتكلم..

الثقفيون : (من أعلى الحصن) لكما الأمان.

أبوسفيان والمغيرة : نريد نساءنا من قريش أن تخرجن إلينا.. نخاف عليهن السبى.

أبوسفيان : ابنتى تحت عروة بن مسعود ولها منه ولد: داود بن عروة..

المغيرة : والفراسية بنت سويد بن عمرو بن ثعلبة، عند قارب بن الأسود.. لها منه عبد الرحمن بن قارب..

أبوسفيان والمغيرة : (يستأنفان) وأخريات.. ادفعوهن إلينا فإننا نخاف عليهن السباء!!

بنو الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان، يا مغيرة!

أبوسفيان والمغيرة : لبيكم..

بنو الأسود : ألا ندلكما على خير مما جئتما له!

أبوسفيان والمغيرة : ماهو؟

بنو الأسود : إن مال بنى الأسود حيث قد علمتما، ليس بالطائف مال أبعد رشاءً، ولا أشد مؤنة منه، ولا أبعد منه عمارة، وإن محمدًا إن قطعه لم يعمر أبدًا، فكلماه ليأخذه لنفسه أو ليدعه لله وللرحم، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل!

أبوسفيان والمغيرة : ننقل إليه ما قلتم..

«ينصرفان..».

* * *

«النبى - عليه السلام - يمر وينادى فى المسلمين مشجعًا وقد اشتد انهمار سهام الثقفيين عليهم من أعلى الحصن..».

النبى : (مناديًا) من بلغ بسهم فله درجة فى الجنة..

«عمرو بن عبسة ما يكاد يسمع وعد النبى حتى ينشط فى الرمى فيرمى ستة عشر سهمًا.. يتابعه المسلمون لا يخشون ما ينهمر عليهم من أعلى الحصن..».

النبى : (يستأنف مناديًا) من رمى بسهم فى سبيل الله هو عدل محرر، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة، وأيما رجل أعتق رجلاً مسلمًا فإن الله سبحانه

وتعالى جاعل كل عظم من عظامه وقاء كل عظم بعظم، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله عز وجل جاعل كل عظم من عظامها وقاء كل عظم من عظامها فى النار..

* * *

«النبى - عليه السلام - بين بعض صحابته وقد استطال الحصار وثقلت المعاناة على المسلمين.. يشاور عليه السلام نوفل بن معاوية الديلى..».

النبى : يا نوفل..

نوفل بن معاوية الديلى: لبيك يا رسول الله..

النبى : ما ترى يا نوفل فى المقام عليهم؟..

نوفل : (مسريًا) ثعلب فى جحر.. إن أقمت عليه يا رسول الله أخذته، وإن تركته لم يضرك..

«النبى عليه السلام منصت يفكر مليًا..».

* * *

«فى الصباح، النبى - عليه السلام - وقد جلس إليه صاحبه أبو بكر..».

النبى : يا أبا بكر.. إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زبدًا فنقرها ديك فهراق ما فيها!

أبو بكر : (مفسرًا الرؤيا) يا رسول الله، ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد..

النبى : وأنا لا أرى ذلك..

* * *

«مـن على ســور الحصن، يبرز ثقفى ينادى على المسلمين معايرًا فى صلافة ومباهاة!».

الثقفى : (مناديًا) روحوا رعاء الشاء! روحوا جلابيب محمد! أترونا نتباءس على أحبل (القضيب من شــجر العنب) أصبتموها من كرومنا؟

النبى : (داعيًا) اللهم، روح مروحًا إلى النار!

«مــا يــكاد النبــى - عليه الســلام - ينهى دعاءه، حتى يصاب الثقفى بســهم يهوى به من أعلى الحصن!»

«أبــو محجن بن حبيب الثقفــى، زعيم رماة الثقفيين، يطل من أعلى الحصن مباهيًا..».

أبو محجن الثقفى : (ينادى) يا عبيد محمد، إنكم والله ما لاقيتم أحدًا يحســن قتالكم غيرنا، تقيمــون مــا أقمتم بشر محبس، ثم تنصرفون لم تدركوا شيئًا مما تريدون.. نحن قسى (لقب ثقيف) وأبونا قسا!.. والله لا نسلم ماحيينا، وقد بنينا طائفًا حصينًا!

«يبرز له عمر بن الخطاب..»

عمر بن الخطاب : (مناديًــا) يا ابن حبيب. والله لنقطعن عنك معاشــك حتى تخرج من جحرك هذا.. إنما أنت ثعلب فى جحر يوشــك أن يخرج.

أبو محجن الثقفى : إن قطعتــم يــا ابن الخطاب حبلات عنــب، فإن فى الماء والتراب ما يعيد ذلك.

عمــر : لا تقــدر أن تخــرج إلى ماء ولا تراب.. لــن نبرح عن باب جحرك حتى تموت!

«أبو بكر يقبل مهرولاً..»

أبوبكر : (ناهيًا) يا عمر لا تقل هذا، فإن رسول الله لم يؤذن له فى فتح الطائف!

عمر : هل قال لك رسول الله هذا؟

أبو بكر : نعم..

«عمر يكر عائدًا يبحث عن رسول الله ...»

* * *

«النبى – عليه السلام – يتفقد المسلمين بأدنى الحصن، تلقاه خولة بنت حكيم السلمية، فتتمنى عليه وعدًا إذا فتح الله الطائف..

النبى : (يتبسم مباسطًا) وإن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف يا خويلة؟!

«خولة تنصرف متأملة فيما سمعت.. تتساءل: ما الذى قصده رسول الله؟!.. تصادف عمر بن الخطاب فتسر إليه بما سمعت من الرحمة المهداة..».

* * *

«قبة النبى – عليه السلام – يدخل عليه عمر ابن الخطاب مبلبل الخاطر بما سمعه من خولة وما ألمح إليه أبوبكر..».

عمر بن الخطاب : يا رسول الله، حدثت خولة ما حدثتنى أنك قلته؟

النبى : قد قلته..

عمر : يا رسول الله، أو لم يؤذن لك فيهم؟..

النبى : لا..

عمر : أفلا أؤذن فى الناس بالرحيل!

النبى : بلى.

«عمـر بن الخطـاب ينطلق فينـادى بصوته الجهـورى بين النـاس بالتهيـؤ للرحيل.. لا يكاد النـداء يتردد فـى جنبات الـوادى حتى يضطـرب الناس متفرقين بين قابل ومشـفق من الانصراف..».

البعض : (مستهولين) ننصرف ولا نفتح الطائف!

آخرون : لا نبرح حتى يفتح الله علينا..

أحدهم : والله إنهم لأذل وأقل من لاقينا!

ثان : (مؤيـدًا) قد لقينا جمـع مكة وجمع هوازن، ففرق الله تلك الجموع!

ثالث : إنما هؤلاء ثعالب فى جحر، لو حصرناهم لماتوا فى حصنهم هذا!

البعض : قد طال الحصار.. ولديهم الطعام والماء الواتن!

مجموعة : بل نبقى وسيفتح الله علينا..

«يتجه البعض إلى أبى بكر الصديق..».

البعض : يا أبا بكر كلم لنا رسول الله أن نقيم حتى يفتح الله علينا..

أبوبكر : الله ورسوله أعلم، والأمر ينزل عليه من السماء..

«رهط يتجه إلى عمر بن الخطاب..»

الرهط : يا أباحفص، كلم لنا رسول الله..

عمر : لا أفعـل.. (يسـتأنف) قد رأينا الحديبيـة، ودخلنى فى الحديبية من الشـك ما لا يعلمه إلاّ الله، وراجعت رسـول الله يومئذ بكلام ليت أنى لم أفعل، وأن أهلى ومالى ذهبا!

ثـم كانت الخيرة لنا من الله فيما صنع، فلم يكن فتح كان خيرًا للناس من صلح الحديبية بلا سيف!

أحدهم : (مرددًا) فتح بصلح؟!

عمر : أجل. دخل فيه من أهل الإسلام مثل من كان دخل من يوم بُعث رسول الله إلى يوم كتب كتاب الصلح..

«تتخافت اعتراضات الناس.. وتهدأ خواطرهم، ويتابعون عمر بن الخطاب مترقبين..».

عمر : (يستأنف) اتهموا الرأى، والخيرة فيما صنع رسول الله، ولن أراجعه فى شىء من ذلك الأمر أبدًا!.. الأمر أمر الله، وهو يوحى إلى نبيه ما يشاء!

* * *

«النبى - عليه السلام - يمر بين المسلمين يطيب خواطرهم، ويدعوهم..».

النبى : (مناديًا فى المسلمين) إنا قافلون إن شاء الله!

المسلمون : (متنادين) نسمع ونطيع يا رسول الله..

«ينصرف الناس يتهيأون للرحيل.. يشرف عليهم النبى - عليه السلام - ويناديهم..».

النبى : (للمرتحلين) قولوا لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده!

«المسلمون يبدأون فى الرحيل متنادين بدعاء الرسول..»

«النبى عليه السلام على مخرج طريق العودة، ينادى فى العائدين مشجعًا..»

النبى : قولوا آيبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون..

المسلمون : (يتصاعد دعاؤهم إلى السماء) آيبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون..

«على جانب الطريق يفيض البعض إلى رسول الله – عليه السلام – منكرين من ثقيف ما باهتهم به وأغلظت فيه..».

البعض : يا رسول الله، ادع الله على ثقيف.

النبى : اللهم اهد ثقيفًا واكفنا مؤنتهم وائت بهم!

* * *